تجنيد النصوص

قد لا يلام الجاهل إذا ما أسرف به انحيازه لعرقه أو لعائلته أو لثروته أو حتى لما يدين به في توسيع نظرته الاستعلائية على الآخرين . ولكن العالِمون العارفون وحدهم لا يُعذرون إن لم تُسعفهم معارفهم في التصدي لكل نظرة استعلائية لا تُخلّف وراءها إلا معاناة هنا ، أم إهدار حق هناك .

ولعله من الغريب جداً ، أن تجند نصوص مقدسة في عملية استدلال منحازة ، لمجرد إثبات ما لا يمكن أن تكون حقيقته سوى هوى نفسي ، أو مصلحة ذاتية .

خذ مما يؤسف له مثلاً ، عندما ينبري بعض طلبة العلوم الدينية للنضال عن تمييزهم المرجو أن يكون مستداماً في المحافل والمناسبات العامة ، منظرين له ب(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ذاهبين بتأويل هذا النص المقدس فقط إلى ما ينحازون إليه فقط من استدامة لتعالي وتمييز شأنهم داخل تلك المناسبات .

من أخطر الأشياء في تقديري توظيف المضامين الدينية في عكس خط سيرها العام التي جاءت من أجله . أقول هذا في الوقت الذي أكد فيه النص المدشن على (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وهذا تنبيه مهم بأن التقوى هو معيار الأكرمية الوحيد لدى الله ، ولعل اخوتنا من ذوي العلم يوافقوننا بأن معايرة التقوى من قبلنا كبشر ومنح أنفسنا وغيرنا في سلمها درجات عملية عصية علينا ، بينما هي في متناوله وحده ، وكأن المعنى المستفاد إجمالاً من هذه الآية : احذروا ياعبادي لأن يمنح بعضكم نفسه مكانة أعلى من غيره ، فضلاً عن أن يطالب الغير بها .

لكن يبدو أن إخوتنا في الله من ذوي العلم هدانا الله وإياهم لم يلتفتوا إطلاقاً لحالة الانحياز التي أطبقت عليهم حينما أعرضوا عن آية التقوى واتجهوا إلى (هل يستوي الذين يعلمون .....) في إثبات مبتغاهم من ضرورة التمييز لدى البشر . يبدو والله العالم أنهم لم يلتفتوا بأن عدم الاستواء ليس محسوماً في موضوعه ، فقد يراد به المنزلة وقد يسع الحساب ، وهذا من أعراف العقلاء !!

فإن كان الله سبحانه قد يتجاوز عمن لايعلمون حينما تسعى بهم أفهامهم إلى تغييب النظرة الدينية الأصيلة ، كنظرة تكفل للإنسان حقه بغض النظر عن لونه وجنسه وثروته أو حتى مستوى تعليمه ، فهل

سيتساهل مع من يفترض أنهم يعلمون حينما يناضلون عن رفعة دنيوية زائلة ، أو تكريس نظرة مستعلية واهمة ، تترك خلفها ماقد تترك ... !!!.

أما حينما يُستشهد ب (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ، فمن المستغرب حقاً أن لايكتفي من يعتبرون أنفسهم علماء بأن رفعتهم المأمولة قد تحققت واستوفت لدى الله ، بل يطول بهم الأمل كثيراً ويسعون بهذه الآية حثيثاً إلى طلب الرفعة في كل مكان وزمان ، حتى لو كانت على ظهور المتخلقين ، من هم للنظام ، ولاحترام عامة الإنسان من المعتبرين .